

مدينة النسطاط

لجناب الاديب صالح اندي حندي

لا يخفى ان النسطاط اول مدينة اخنظها العرب بمصر بعد فتحهم لها على يد القائد الشهير عمرو بن العاص وجعلوها عاصمة هذه الديار وذلك في سنة ٥٢١ هـ وموقع هذه المدينة الآن جنوبي القاهرة الى الشرق من مصر العتيقة وآثارها التلال والكيمان الكبيرة الممتدة من اطراف الترافة الكبرى تحت سطح المنطم الى مسجد ابي السعود الجارحي فجامع عمرو . وقد ازدهت هذه المدينة ابان ثبيتها حنة من الدهر واشتهرت بين مدن الاسلام التي كان يضرب المثل بكثرة عمارتها ووبروتها ولم ينحط قدرها الا بعد بناء القاهرة العاصمة الحالية على يد جوهر قائد المعز الناطي سنة ٥٢٥٩ هـ فأخذت النسطاط اذ ذاك في الاضمحلال شيئاً فشيئاً الى ان قضى عليها حريق شاور السعدي في صفر سنة ٥٦٤ هـ فصيرها اثرأ بعد عين وكان موضع النسطاط في الازمنة السالفة بلدة قديمة اسمها بابل او بابليون على ضفة النيل الشرقية ازاء الجزيرة وسبب تسميتها بهذا الاسم على ما ذكره مؤرخو اليونان ان مؤسسها كانوا من اهل بابل العراقية اسرم كميز ملك فارس واتى بهم بلاد مصر التي كانت في حوزته اذ ذاك فانزلهم تلك الجهة فبنوا فيها هذه المدينة وسميت اليهم . وقد ذكرها علماء التاريخ المصري القديم وعدوها من ضمن المدن الشهيرة باقليم أون الشمالية (عين شمس او المطرية) وكان في بابليون هذه معبد للنيل وذكر مؤرخو العرب انه كان في حصنها حين الفتح مقياس للنيل ايضاً

واشتهرت بابليون بطريقها المملوك الى المطرية فوق المنطم لان النيل كان يجري اذ ذاك تحت سطحه في موضع القاهرة وما والاها الى المطرية التي كانت وقتئذ على شاطئه وكان طريقاً عظيماً تسلكه الجنود والناس بمهاتهم وكانوا يحومونه " خرخان او خرخان " ومعناه موضع القتال او موضع عدد القتال ما يدل على انه كان نقطة حربية مهمة وتزعم خرافاتهم انه طريق معبودهم " سب "

وقد ذكر مؤرخو العرب هذا الطريق عند تكلمهم على البناء الذي كان يقال له نور فرعون وكان فوق المنطم وقد بناه احمد ابن طولون مسجداً قبل مسجد الشهير وقالوا ان سبب تسميته بهذا الاسم ان فراغت مصر الذين كانوا يتزلون عين شمس كان من عادتهم اشعال النار ليلاً في ذلك المكان عند اجيازهم هذا الطريق لكي يستعد الاهلون لملاقاتهم

بكل ما يعوزهم ولعلّ السبب في ذلك انما هو اعتداه المارة في غلس الظلام كما لا يخفى
وفي القرن الرابع للبلاد كان في بابلين هذه حامية كبيرة ولا بدّ ان يكون الجحمران
الذنان ذكر مؤرخو العرب انها كانا عند النخ يصلان هذه البلدة بجزيرة الروضة فالجزيرة
كانا في ذلك الحين اوقلة وكانا من مراكب مصطفة بعضها حذاء بعض وعليها الواح
الخشب والتراب لكي يسهل مرور الناس بدوابهم عليها وكان عرض كل منها ثلاث قصبات
وقد جددا مراراً في الاسلام

اما حصنها الشهير بفصر الشمع فكان حصناً منيعاً مشرفاً على النيل تحيط به المدينة من
ثلاث جهات ولم يعلم على التحقيق زمن انشائه والمرجح انه من بناء فارس حين استيلائهم على
هذه الديار على ان صورة السر الروماني التي على باب حائطه الجنوبي تدل دلالة واضحة على
ان الرومان جدّدوا بناءه في ايامهم ولم تنزل آثار هذا الحصن قائمة الى اليوم وهي دير مار ي
جرجس وما جاوره من الكنائس والابنية الداخلة في دائرته ولكن منظرها قد شوه بما جدّد
فيها من العارة وقد بعد عنها النيل من زمن النخ الى الآن نحو ٤٠٠ متر

ولما نزل عمرو بن العاص بجيشه شمالي هذا الحصن كانت بابلين خراباً فكان موضع
النسطاط فضاء نياً بين المقطم والنيل ولم يكن في تلك الجهة اذ ذلك الا الحصن المذكور
وبعض الكنائس والادوية ومزارع مشورة في ذلك الفضاء على ابعاد متفاوتة . فلما افتتح
عمرو الحصن واراد الخروج الى الاسكندرية امر بتزع فسطاطو وكان مضروباً على مقربة
من الجامع المنسوب اليه الآن فاذا فيو يمام قد فرّخ فامر بتركه على حاله وقال " والله ما
كننا لنسي الى من لجأ بنا واطمان الى جانبنا " فلما رجعوا من امر الاسكندرية قال الجنديان
تنزل فقال عمرو والنسطاط مشيراً الى فسطاطو فهذه السبب في تسمية هذه المدينة بالنسطاط
على ما ذكره اكثر المؤرخين . ولما نزل عمرو موضع فسطاطو وانضمت القبائل التي معه
بعضها الى بعض اخذت تتنافس وتتبارح على المواضع فعين عمرو على تخطيطها لم اربعة
من اصحابه فاتزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وكان هذا اول نشأة تلك المدينة

والخطط التي اخطنها قبائل العرب لاول مرة في النسطاط كانت كثيرة وهي منتزلة
الحارات في القاهرة وقد ذكرها المترجمي تفلان عن القضاعي فقال

ان خطة اهل الرابية وهم بطون من نخبة القبائل التي حضرت فتح مصر كتريش
والانصار وخزاعة وغيرهم كانت كبيرة متسعة ذات اسواق وشوارع تحيط بجامع عمرو من
جميع جهات وممتدة من المصنف الذي كانوا عليه في حصارهم للحصن عند الباب الذي كان

يقال له باب الشمع الى النيل غرباً . وتبي هذه المخططة من الجنوب خطه مهرة بن حيدان من حجير وتبي هذه الى آخر حائط من الحصن الشرقي خطه نجيب وم بنو عدي من كنة ونجيب امهم

وكان لخم ثلاث خطط احداها في شمال اهل الراية والفتنان الاخريان وهما رية وراشة كانتا متاخمتين تمتد اولاهما الى كبسة ميكائيل عند خليج بني وائل والثانية الى الآثار النبوية (اثر النبي الآن) وكان في هذه المخططة جامع راشدة وجنان بني كهمس المعروف بالمداراني وكانت مشرفة على بركة الحش . وبلي خطه اهل الراية من الشمال الغربي خطط اللبيف وهم اخلاط من القبائل وكانت تمتد الى سوق وردان سولي عمرو بن العاص القريب من دير النحاس . وخطط اهل الظاهر وهم القبائل التي كانت في الاسكندرية ثم رجعت بعد عمرو كانت تمتد من خطه لخم الاولي الى موضع العسكر وتلي لخم الاولي ايضاً الى خطط الظاهر خطه غانق من الارد

والنارسيون وهم من جنود فارس من السلم وحضر مع عمرو الى مصر لغزو اخنطوايها في الارض الصفراء التي الى الشرق من خطه الجامع الطولوني . وتزلت وعلان بالقرب من قبر القاضي بكار في القرافة الكبرى وكان في خططها صنم يعرف بربة فرعون ولا بد ان يكون من تماثيل القدماء . وقد دثرت هذه المخططة اهدم القضاي المرفوعة سنة ٥٤٧ هـ . اما خطه يحمص فكانت متصلة بالرصد (المنظم) المطل على راشدة وكانت كياناً اهدمته ايضاً . وخطه المغافر كانت تتدلى من الرصد الى ان تقصل بين القرافتين الكبرى والصغرى عند القناطر التي كانت تعرف ببغاية ابن طولون . وكانت خطه السلف بن سعد بين الكوم المطل على القاضي بكار والمغافر وكان هناك المصلى القديم ودار الامارة بالعسكر . وخطط بنو وائل في سفح الرصد بالقرب من رية وراشة وقد ذكر المفريزي خططاً اخرى اضر بنا عنها خشية الاطالة ولا يمكن تعيين مواضع تلك الخطط تعييناً حقيقياً الآن لانها دثرت كلها وتغيرت اسمائها فضلاً عن انها لم تترك اثراً يذكر غير ما هناك من التلال التي قل ان تنفيذ شيئاً غير الاستدلال العمومي على وجود تلك المدينة

وقد قسم المفريزي هذه المدينة الى قسمين يقال لاحدهما عمل فوق وهو النسطاط الخفية وحدودها دير الطين وبركة الحش المندثرة الآن الى المنظم ومن الشرق المنظم حيث القرافة الكبرى ومن الشمال قناطر السباع وهي الجبارة او العيون التي بنيت فيما بعد لتوصيل ماء النيل الى القلعة ومن الغرب نهر النيل . والثاني عمل تحت وهو ما دون ذلك

الى القاهرة فكان يدخل في المكان المعروف بالعسكر الذي بني بظاهر النسطاط وكان
يمتد كالنسطاط من سفح المنطم الى النيل غرباً فبدخل في دائرته مشهد زين العابدين وقنطرة
السد حيث يقطع الخليج الآن الى خط السيدة زينب شمالاً . ثم قطائع ابن طولون وهي الى
الشمال الشرقي من العسكر وكان يدخل فيها ميدان القلعة حيث كان قصر ابن طولون
ومشهد السيدة نفيسة وكذا خط قلعة الكيش وجامع ابن طولون وما يليها جنوباً الى مشهد
زين العابدين وشمالاً خط الصليبية وكل ذلك كما لا يخفى من ضمن القاهرة الآن

ولا يخفاء ان ابنية هذه المدينة كانت باقية بدءاً على غاية البساطة على انها ما لبثت
ان اتسع حائلها فظهرت فيها المباني الضخمة والمنازل الكبيرة والاسواق العظيمة وقناطر اليها
السكان من كل صوب فازدادت فيها العمارة ازدياداً كبيراً حتى قالوا انها كانت كذلك
بغداد ومساحتها نحو فوسخ على غاية من العمارة والطيبة . قال المتريزي انه كان بها نحو ٢٦
الف مسجد و ٨ آلاف شارع و ١١٧٠ حماماً وهذا القول لا يخلو من المبالغة ولكنه يدل
دلالة واضحة على ما كانت عليه هذه المدينة من كثرة العمارة ايام مجدها الاول

وقد احترقت النسطاط سنة ٦٦٤ للهجرة ولكن بقي فيها شيء كثير من العمارة حتى سنة
٧٢٥ ولا سيما في قسمها الغربي كما يوجد ما نقله المتريزي عن ابن المبرج فقد ذكر من اخطاط
النسطاط الشهيرة ٥٢ خطاً ومن الحارات ١٢ ومن الازقة المشهورة ٨٦ ومن الرحاب ١٥
ومن التياسر ٧ ومن المجمامع بالنسطاط وضواحيها من الفرافة والجزيرة ١٤ ومن المساجد
٤٨٠ ومن المدارس ١٧ ومن الزوايا ٨ ومن الكنائس والادوية ٢٠ ومن الدروب ٥٢
ومن الاسواق ١٩ ومن المخطط المشهورة بالدور ١٢ ومن الحمامات نيفاً و ٧٠ حماماً وغير
ذلك ما اغفناه وقد دثر معظمه لعهد المتريزي اما الآن فلا يعرف له اثر

وكانت ابنية المدينة امان زهوا مرتفعة جداً حتى قالوا ان دورها كانت تبلغ الست
او السبع طبقات وكان يسكنها نحو المئتين من الافنس ولكنها كانت دون منازل القاهرة في
اليهاء والروتق لانها كانت مبنية بالطوب الادكن والنصب والتخيل وكانت شوارعها
وازقتها ضيقة قدره مزدحمة بالناس . اما منازلها التي كانت على شاطئ النيل مقابل جزيرة
الروضة فكانت بهيجة المنظر كثيرة الترفه وفي ذلك يقول بعضهم

ترلنا من النسطاط احسن منزلٍ بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة كسرب قطعاً اغشى يرف على ورد

اما قسم النسطاط الشرقي فانه لم تقم له قائمة بعد الخراب الاول

وكان للمدينة أسوار وأبواب وقد خربت وجددت مراراً ذكر الكريزي منها أربعة
 أولها باب الصفا وكان شرقي المدينة حيث الترافة بالقرب من الكوم الذي كان يقال له
 كوم الجوارح وكان هذا الباب أعظم أبواب النسطاط منه تخرج العساكر وتعبر التوافل .
 والثاني باب الساحل لأنه كان ينضي بسالكه الى ساحل النيل وموضعه بالقرب من كوم
 الكبارة او المشايخ وهو الكوم المجاور للذبح الجديد الآن كما عينه سعاده علي باشا مبارك .
 والثالث باب مصر في الشمال وكان بين بستان العالمة (وهو جينة السادات بقم المخلج الآن)
 وبين الكوم السابق ذكره . الرابع باب الفنطرة نسبة الى فنطرة بني وائل وموقعه جنوبي
 النسطاط . وقد كان في عزم السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ان يبني سوراً يحيط
 بالنسطاط والقاهرة معاً فلم يبنها له ذلك وعاجلته المنية قبل اتمامه

وقد اشتهرت النسطاط على الخصوص بسعة تجارتها ورواج اسواقها لكثرة الوارد
 والصادر منها برّاً وبحراً على التوافل وفي النيل فكانت المتاجر والحاصلات تجتمع فيها من
 جهات البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر وتنفق منها حتى بعد بناء القاهرة نفسها كما
 يشهد بذلك ما حكاه ابن سعيد المغربي وغيره . اما صناعتها فكانت على جانب عظيم من
 النعم والسعة فكان فيها معامل للسكر والصابون والشع والورق والخزف والنسج وبالجيلة
 جميع الصناعات التي برع فيها العرب والقبط . وقد يكنى في اظهار مهارة صناعتها وحذقهم ما
 نقله التواريخ عن بذخ امرائها كاحمد بن طولون وابو خمارو وبه ومن جرى مجراها فان جميع
 قصورهم وابنتهم وما كان فيها من نقش وزخرف كل ذلك قد خرج من ايدي صناع المدينة
 ومع ما كانت عليه هذه المدينة من رفعة العمارة وكبير الثروة لم تكن جينة الهواء ولا جميلة
 المنظر كغيرها من المدن العربية وقد ذمها بعض من زارها كابن رضوان وابن سعيد وعبد
 اللطيف البغدادي لانها كانت في غور من الارض يحيط بها المنطم شرقاً وقطعة المعروفة
 بالرصد او الشرف جنوباً وجبل بشكر وما عليه من الابنية شمالاً هذا فضلاً عن ارتفاع
 ابنتها وضيق شوارعها وازقتها على ما فيها من كبير الفدارة والعنونة لكثرة ما كان يلقى في
 قارعتها من اوساخ المنازل وجيف الحيوانات وما كان يخالط ماء النيل من مجاريها وما
 كان يعلو افئدة من دخان حماماتها وغبار ارضها فلا غرو ان كانت الاربعة لم تنفك عن
 ذراها سنة من السنين

على ان النسطاطيين كانوا يجردون تعزية عن ذلك بما كان لهم من الضواحي والمنتزهات
 الجميلة على ضفاف النيل كالبحيرة التي كانت من اكبر الجنان وجزيرة الروضة الشهيرة التي

يقول فيها ابن ماني الشاعر

جزيرة مصر لا عدتك مسرة ولا زالت اللذاتُ فيك اتصاليها
مفانيك فوق النيل اضمحت هوادجاً ومختلفاتُ الموج فيها جمالها
وقد كان لهذا الجزيرة المنام الجليل في سالف الزمان فكان فيها ابراج وحصون ثم
انخذها امراء مصر وملوكها متتوفاً لم يفتوا فيها النصور العالية والابراج الشاهقة وغرسوا
فيها البساتين والحدائق الغناء . وكان لاهل النسطاط والقاهرة ولوع زائد بكناها والنتزه
في رياضها حتى اضمحت لكثرة عمارتها كدبنة قائمة بمفردها ولم يزل فيها الى الآن مقياس
النيل الشهير وبقية من الدور الجليلة

وكان لاهل النسطاط منتزه آخر لا يقل عن هذه الجزيرة وهو بركة الحبش التي يقول
فيها ابو الصلت امية بن عبد العزيز الاندلسي

لله يوم بركة الحبش والافق بين الضياء والغش
والنيل بين الرياح مضطرب كصارم في بين مرتش
ومخن في روضه مرتفة دُجج بالنور عطشها ووشي

وكان لم حول تلك البركة دور وبساتين غاية في الروق والبهاء وقد دثرت من
عهد بعيد وصارت ارض مزارع بين المنظم ودير العطين على النيل

وكانت اعيادهم ومواسمهم كثيرة يشترك فيها جميع الناس من كل الطبقات والمذاهب
ولاسيا اعياد النيل التي كان اكثرها من عهد القدماء وقد نخب معظمها الآن فكانوا يخرجون
فيها من النسطاط والقاهرة وما جاورها الى النيل في المراكب والزوارق ويظهرون فيها من
الطرب والمخلاعات والمجون ما يخرج عن حد الادب

وكانت النسطاط ثالثة المدن التي شادها العرب في البلاد التي افتتحوها وهي البصرة
والكوفة والنسطاط وكذلك جامعها الشهير بجامع عمرو كان ثالث المساجد التي بنيت في
صدر الاسلام وكان موضعه جنائنا وحدائق لتيسبة بن كلثوم النخعي فومها لبناء الجامع
المذكور وفي ذلك مدحه بعضهم بقوله

وبالميون قد سعدنا بفتحها وحرنا لعمري الله فينا ومغنا
وتيسبة الخيرا بن كلثوم ناره اباح حاما للصلاة وسلمنا

فبنى عمرو فيها جامعة وكان يقال له تاج الجوامع وجملة على شكل بناء الكعبة وجلب
اعمدته وادائه من خرابات منف وذلك في السنة التي بنيت فيها النسطاط وكان هذا الجامع

في بدء امره صغيراً ولكن ولاية مصر وملوكها من بعد عمر وجددوا فيه ووسعوه حتى خرج عن بنايه الاصيلي وبلغت به الزخرفة مبلغاً عظيماً وصار له اربع اوجس من المآذن وثلاثة عشر باباً وظلمت بعض عمدته بالذهب وفرشت ارضه بالمرمر ونقشت حيطانه بالابيات القرآنية وجعلت فيه الزوايا للقراء والمدرسين وكان للامام الشافعي رحمة الله زاوية فيه . وكان يوجد في هذا الجامع ليلاً نحو من ١٨ الف قنديل من الزيت وبلغ عدد عمدته اiban زهاء نحواً من ٤٠٠ عمود . وقد ذكر المتريزي جوامع ومدارس في هذه المدينة غير هذا الجامع اضرباً عنها لانها خربت الآن ولا يكاد يعرف لها اثر وقد نأخذ الانسان الدهشة والحيرة عندما يزور آثار تلك المدينة ويسرح طرفه يميناً وشمالاً فلا يرى الا اطلالاً بالية ورسوماً عافية وتلالاً يأخذ غبارها بالارواح والاصار وكبائناً تحجب بمنبر ترايبها ضوء النهار . لا تكاد تنطق عن مآثر قومها او تترجم عن مفاخر اعلمها كما هو الحال في آثار المدن القديمة الاخرى وآتة متى راجع ما كان يشوب تاريخها من كثرة الثمن وردد ما كان يلحق بها من الاحن علم بداحة سر هذا المقلب وعرف ان ايدي الانسان فعلت بها اكثر من ايدي الزمان

برج ايفل

المره موع بالشهرة والامتياز على غيره وهذا الخلق النظري ظاهر في الشعوب ظهوره في افرادها فترى زبداً يبالغ في اتقان داره وبساتينه وماكوله ومشربه وينفقها او يخرقها او يدخل فيها ما يندر وجوده او يفلوئته لكي يتاز على اقرانه ويشبه بالذين فوقه وهذا تزيين بالحلي والحلل لكي تتوق اترابها وتتار عليهن . وهذا شأن الامم والشعوب فانها لا تتأثر تنبارى وتتسابق في ميدان الشهرة والامتياز

ومن اشهر اساليب الشهرة والامتياز عند الشعوب القديمة والحديثة انشاء المباني الفخيمة والصروح الباذخة من اهرام مصر الى هياكل الصين . وقد بلغ الاقدمون حد العجاز في رفع المباني منذ ستة آلاف سنة ولم يقفهم احد من المتقدمين ولا من المتأخرين الا منذ عهد قريب جداً لان الجميع اعتمدوا على الحجارة وبناء الشواقي بها عظيم المشقة كثير النفقات يتعذر البلوغ به فوق الحد الذي بلغه الاقدمون في اهرام مصر ولم يتسن للمتأخرين ان يتفوقوا هذا الحد كثيراً الا لما استعملوا الحديد في برج ايفل الآتي ذكره . وقد رسمنا اشهر المباني